من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (5)

بلاغة الإفراد والتثنية والجمع في القُرآن الكريم

ترد بعض الألفاظ القرآنيّة ذاتها، في موضع مُفردةً، وفي آخرَ مُثنّاةً، وفي ثالث مجموعة، وورودها على هذا النّحو، خاضعٌ لما تُفيده من معنًى، في السّياقات المختلفة الّتي انتظمت فيها:

1- «ومن هذا المعنى، مجيء (**المشرق والمغرب**) **في القرآن**؛ تارةً مجموعين، وتارةً مُثنّيين، وتارةً مُفردين، لاختصاص كلّ محلٍّ بما يقتضيه مِن ذلك، فالأوّل كقوله تعالى: ﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ**﴾[المعارج:40]، والثّاني كقوله: ﴿**رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾[الرّحمن:17-18]، والثّالث كقوله: ﴿**رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا**﴾[المزّمّل:9].فتأمّل هذه الحكمة البالغة في تغايُر هذه المواضع، في الإفراد والجمع والتّثنية، بحسب مواردها، يُطلعْك على عظمة القرآن الكريم وجلالته، وأنّه تنزيلٌ من حكيم حميد. فحيث جُمِعت، كان المراد بها مشارق الشّمس ومغاربها في أيّام السّنة، وهي مُتعدّدة. وحيث أُفرِدت، كان المرادُ أُفقي المشرق والمغرب. وحيث ثُنّيا، كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما؛ فإنّها تبتدئ صاعدةً حتّى تنتهيَ إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، ونشأ منه فصلا الخريف والشّتاء، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا، ويُقابلها مغرباها. فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتّثنية والجمع»[1].

هذا من حيث الإجمال، أمّا من حيث التّفصيل، فيقول ابن القيّم ــ وهو يرى أنّه شقّ القول في هذا الباب، ولم يُسبَق إليه ــ: «وأمّا وجهُ اختصاصِ كلّ موضعٍ بما وقع فيه، فلمْ أرَ أحدًا تعرّض له، ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بيّنٌ من السّياق»[2].

ثمّ يوجّه ابن القيّم رحمه الله المواضع الثّلاثة المختلفة في لفظي (المشرق والمغرب) توجيهًا بديعًا؛ يُفصّل فيه كلّ موضعٍ على حِدَةٍ.

أمّا موضع سورة الرّحمن، فيُقرّر فيه إنّه: «لما كان مساق السّورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أوّلاً نوعي الإيجاد؛ وهما الخلق والتّعظيم، ثمّ ذكر سراجي العالم ومظهري نوره؛ وهما الشّمس

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد، ج1، ص109-110.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص110.

والقمر، ثمّ ذكر نوعي النّبات؛ ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض، وهما النّجم والشّجر، ثمّ ذكر نوعي السّماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنّه رفع هذه ووضع هذه، ووسّط بينهما ذكر الميزان، ثمّ ذكر العدل والظّلم في الميزان؛ فأمر بالعدل ونهى عن الظّلم، وذكر نوعي الخارج من الأرض، وهما الحبوب والثّمار، ثمّ ذكر خلقَ نوعي المكلّفين، وهما نوع الإنسان ونوع الجانّ، ثمّ ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثمّ ذكر بعد ذلك البحرين؛ الملح والعذب، فتأمّلْ حُسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السّورة وجلالة ورودهما لذلك، وقَدِّرْ موضعَهما اللّفظ مُفردًا ومجموعا، تجد السّمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنّظم»[1].

هذا توجيه ورود لفظي (المشرق والمغرب) مُثنّيين، أمّا عن مجيئهما مُفرَدين في سورة المزّمّل، فيقول ابن القيّم: «ثمّ تأمّل ورودهما مُفردين في سورة المزّمّل، لَمّا تقدّمهما ذكرُ اللّيل والنّهار، فأمر رسوله بقيام اللّيل، ثمّ أخبره أنّ له في النّهار سبْحًا طويلا، فلمّا تقدّم ذكر اللّيل، وما أُمِر به فيه، وذكر النّهار وما يكون منه فيه، عقّبَ ذلك بذكر المشرق والمغرب اللّذيْن هما مظهر اللّيل والنّهار، فكان وُرودُهما مُفرَدين في هذا السّياق أحسن من التّثنية والجَمع؛ لأنّ ظهور اللّيل والنّهار هما واحدٌ؛ فالنّهار أبدًا يظهر من المشرق، واللّيل أبدًا يظهر من المغرب»[2].

وأمّا الموضع الثّالث؛ وهو ورودهما مجموعين، فيُرِدِف ابن القيّم قائلاً: «ثمّ تأمّلْ مجيئهما مجموعين في سورة المعارج، في قوله: ﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ**﴾[المعارج:40-41]، لما كان هذا القسم في سياق سَعَة ربوبيّته وإحاطة قُدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء، والإتيان بخيرٍ منهم، ذكرَ (المشارق والمغارب) لتضمُّنها انتقال الشّمس الّتي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كلّ يومٍ في مشرق ومغرب، فمن فعل هذا، كيف يُعجِزه أن يبدّل هؤلاء، وينقل إلى أمكنتهم خيرًا منهم. وأيضًا، فإنّ تأثير مشارق الشّمس ومغاربها في اختلاف أحوال النّبات والحيوان، أمرٌ مشهور، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببًا لِتَبَدُّل أجسام النّبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، ويُبدّل الحرّ بالبرد، والبرد بالحرّ، والصّيف بالشّتاء والشّتاء بالصّيف، إلى سائر تبدّل أحوال الحيوان والنّبات والرّياح والأمطار والثّلوج، وغير ذلك من التّبدّلات والتّغيّرات الواقعة في العالم، بسبب

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد ، ج1، ص110.

(2) المصدر نفسه ،ج1، ص110.

اختلاف مشارق الشّمس ومغاربها، كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك، على أنْ يُبدّل خيرًا منهم، وأكّد هذا المعنى بقوله: ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**﴾، فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع»[1].

فالنّاظر في توجيه ابن القيّم رحمه الله لهذه المواضع الثّلاثة المختلفة للّفظ الواحد، إفرادًا وجمعا وتثنية، يُلفي أنّه ردّها إلى مناسبة المعنى العامّ الّذي يقرّره السّياق الّذي ورد فيه هذا اللّفظ.

2- كلمتا (ريح ورياح)؛ قال ابن القيم رحمه الله: «ومن هذا الباب ذكر (الرّياح) جمعًا ومُفرَدة، فحيث كانت في سياق (الرّحمة)، أتت مجموعةً، وحيث وقعت في سياق (العذاب)، أتت مُفردةً[2]. وسرّ ذلك، أنّ رياح الرّحمة مُختلفة الصّفات والمهابّ والمنافع، وإذا هاجت منها ريحٌ، أنشأ لها ما يُقابلها، وما يكسر سورتها، ويصدم حِدّتها، فينشأ من بينهما ريحٌ لطيفة؛ تنفع الحيوان والنّبات، فكلّ ريحٍ منها في مُقابلها ما يُعدّلها ويردّ سَوْرَتها، فكانت في الرّحمة ريحًا. وأمّا في العذاب، فإنّها تأتي من وجهٍ واحد، وحِمامٍ واحد؛ لا يقوم لها شيء، ولا يُعارضها غيرها، حتّى تنتهي إلى حيث أُمِرت؛ لا يردّ سورتها، ولا يكسر شِرَتها، فتمتثل ما أُمِرت به، وتُصيب ما أُرسِلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الرّيح الّتي أرسلها على عادٍ بأنّها (عقيمٌ)، فقال: ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ**﴾[الذّاريات:41]؛ وهي الّتي لا تُلقّح ولا خير فيها، والّتي تعقم ما مرّت عليه»[3].

هذا بصفةٍ عامّة؛ فكلّ آية ورد فيها لفظ (ريح) بالإفراد، فالمقصود بها العذاب، وكلّ ما ورد فيها لفظ (رياح) بالجمع، فالمقصود الرّحمة، وقد شذّ عن هذه القاعدة موضعٌ وحيد؛ ورد في سورة يونس، وقد وجّهه ابن القيّم رحمه الله توجيهًا لطيفًا، فقال:

«ثمّ تأمّل كيف اطّرد هذا، إلاّ في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ**﴾ [يونس:22]، فذكر ريح الرّحمة الطّيّبة بلفظ الإفراد، لأنّ تمام الرّحمة هناك إنّما تحصل بوحدة الرّيح، لا باختلافها، فإنّ

---

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص110-111.

[2] لعله رحمه الله استند في ذلك – إلى جانب التحليل البلاغي والسياقي – إلى ما روى ابن أبي حاتم في تفسيره «عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: (كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرِّيَاحِ فَهِيَ رَحْمَةٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرِّيحِ فَهُوَ عَذَابٌ)». ابن أبي حاتم، ج1، ص275.

(3) ابن القيم، البدائع، ج1، ص107.

السّفينة لا تسير إلاّ بريحٍ واحدة، من وجه واحد سيرُها، فإذا اختلفت عليها الرّياح، وتصادمت وتقابلت، فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هناك ريحٌ واحدةٌ، لا رياح، وأكّد هذا المعنى بوصفها بالطِّيب، دفعًا لتوهّم أن تكون ريحًا عاصفةً، بل هي ممّا يُفرَحُ بها لِطِيبها»[1].

فابن القيّم في هذا، يعلّل لخروج هذا الموضع عن قرائنه بتعليلين: الأوّل: السّياق وما يقتضيه من معنى إفراد الرّيح لا جمعها. والآخر: الوصف المقيّد للرّيح (طيّبة)، فكأنّها لما خرجت عن معهود إطلاق (الرّيح) بالإفراد؛ احتيج إلى تقييدها بوصفٍ يُشعر بمخالفتها لما عُهد من إطلاق، وهو وصف (طيّبة)[2].

3- **كلمتا (رسولُ ورسولا)** في قصّة موسى ﷺ؛ إذ وردت القصّة ذاتها بثلاث عبارات مُختلفة:

– في سورة الشعراء؛ بخطاب الاثنين (موسى وهرون) بصيغة الإفراد (رسولُ): ﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الشعراء:16].

– في سورة طه؛ بخطاب الاثنين (موسى وهارون) بلفظ التثنية (رسولاَ): ﴿**فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ**﴾[طه:47].

– في سورة الزخرف؛ بخطاب المفرد (موسى) بصيغة الإفراد (رسول): ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الزخرف:46].

فلِمَ هذا التَّباين في التعبير، والقصّة واحدة؟

الجواب والله أعلمُ أنّ:

– موضع سورة الشعراء مبنيٌّ على الوحدة (وحدة خطاب موسىﷺ)؛ فإنَّ قبل الآية محلِّ الشّاهد: ﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**﴾[الشعراء:10-14]، ولم يُذكر فيها هارون ﷺ إلاَّ إشارةً لما طلب موسى ﷺ من ربه ﷻ أن يؤازره ويعينه بأخيه. ثمَّ بعدها أيضًا: ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ**

---

[1] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص107.

[2] يُنظر: العيد حِذّيق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، ص135-140.

الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء:18-22]، فالقصَّة كلُّها مبنيَّةٌ على وحدة الخطاب مع موسى ﷺ وإنما أشير إلى هارون إشارةً، ولذلك جاء لفظ (الرسول) مفردًا لأن موسى ﷺ هو الأصل في الرسالة، وأشير إلى هارون بلفظ (فَاتِيَا) لأنه مُعينٌ لأخيه وظهيرٌ له.

– أمَّا في سورة طه؛ فإنَّ القصَّة مبنيَّةٌ على التثنية؛ إذ قبل الآية محلِّ الشاهد: ﴿**اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾[طه:42-46]. فلمَّا كانت كذلك؛ جاءت الآية بتثنية لفظ (الرسول): ﴿**فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ**﴾[طه:47]. فذكر هارون ﷺ هنا ليس على وجه التَّبع؛ وإنما هو ركنٌ في التَّبليغ والرسالة.

– وأمَّا موضع الزخرف؛ فإنَّه جاء بإفراد لفظ (الرسول): ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الزخرف:46]؛ لأنَّه لا ذكر لهارون ﷺ ههنا؛ لا على وجه الأصالة ولا على وجه التَّبع[1].

4– ومِنْ ذَلِكَ **كلمتا (السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)**: حَيْثُ وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ الْأَرْضِ فَإِنَّهَا مُفْرَدَةٌ، وَلَمْ تُجْمَعْ بِخِلَافِ السَّمَاوَاتِ، لِثِقَلِ جَمْعِهَا وَهُوَ (أَرَضُونَ)، وَلِهَذَا لَمَّا أُرِيدَ ذِكْرُ جَمِيعِ الْأَرَضِينَ قَالَ: ﴿**وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾[الطَّلَاق: 12].

– وَأَمَّا السَّمَاءُ: فَذُكِرَتْ تَارَةً بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ، لِنُكَتٍ تَلِيقُ بِذَلِكَ الْمَحَلِّ، وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ حَيْثُ أُرِيدَ الْعَدَدُ أُتِيَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ الدَّالَّةِ عَلَى سَعَةِ الْعَظَمَةِ وَالْكَثْرَةِ، نَحْوَ: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**﴾[الصَّفّ: 1]، أَيْ: جَمِيعُ سُكَّانِهَا عَلَى كَثْرَتِهِمْ. ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**﴾ [الْجُمُعَة: 1] أَيْ: كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى اخْتِلَافِ عَدَدِهَا. ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾[النَّمْل: 65] إِذِ الْمُرَادُ نَفْيُ عِلْمِ الْغَيْبِ عَنْ كُلِّ مَنْ هُوَ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ.

– وَحَيْثُ أُرِيدَ الْجِهَةُ أُتِيَ بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ، نَحْوَ: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وما تُوعَدُونَ**﴾[الذَّارِيَات: 22]، فالرزق المطر، وما وعدنا به الجنة، وكلاهما في هذه الجهة، لا أنهما في كل واحدة واحدة

[1] يُنظر: السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص88-90.

من السماوات، فكان لفظ الإفراد أليق بها. وقوله: ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ**﴾[الْمُلْك: 16] أَيْ: منْ فَوْقِكُمْ.

– وحيث قوبِلَ بين السماء والأرض بالإفراد؛ فالمرادُ جنس السفول الذي تدل عليه الأرض، وجنس العلو الذي تدل عليه السماء، كقوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾[الذاريات:23]، إرادة لهذين الجنسين؛ أي رب كل ما علا، وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته؛ أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماءً، وكل ما يسمى أرضا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير، وإن تبدلت عين السماء والأرض[1].

5- **كلمتا (الظلمات والنور)**: إذ لم ترِد كلمة (الظلمات) في القرآن الكريم إلاَّ مجموعة؛ إشارةً إلى أن طرق الضلال كثيرة متفرقةٌ متشعبة، ولم ترد كلمة (النور) إلاَّ مُفردةً إشارةً إلى أن سبيل الحق واحد يقودك إلى الله الواحد. قال ابن القيِّم رحمه الله (ت:751هـ): «والمقصود أن طريق الحق واحد؛ إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة؛ فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها يوصل إليها، بل هي بمنزلة بنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود، فهي وإن تنوعت؛ فأصلها طريق واحد، ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق؛ فقد أفرد النور وجمعت الظلمات، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ فوحد (ولي الذين آمنوا) وهو الله الواحد الأحد، وجمع (الذين كفروا) لتعددهم وكثرتهم، وجمع (الظلمات) وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها، ووحَّدَ (النور) وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه»[2].

6- **كلمة (أخويكم)** من قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[الحجرات:10]. فإذا كان المؤمنون إخوةً؛ فحق الكلام أن يكون (فأصلحوا بين إخوانكم أو إخوتكم) ولكنَّ الآية جاءت بالتثنية (أخويكم). قال الزمخشري رحمه الله (ت:538هـ): «فإن قلت: فَلِمَ خُصَّ الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل؛ كانت بين الأكثر ألزم، لأنّ الفساد في شقاق

---

[1] يُنظر: ابن القيم بدائع الفوائد، ج1، ص113-117.

[2] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1، ص119-120.

الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج، وقرئ: بين إخوتكم وإخوانكم»[1]. وقول الزمخشري: (وقرئ: بين إخوتكم وإخوانكم) يعني في الشاذِّ من القراءات، وقد وجهها ابن جني رحمه الله (ت:392هـ) في (المحتسب) بنحوٍ مما ذكرنا. قال: « ومن ذلك قراءة زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن –بخلاف– وعاصم الجحدري: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ).

قال أبو الفتح: هذه القراءة تدل على أن القراءة العامة التي هي: (بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) لفظها لفظ التثنية، ومعناها الجماعة، أي: كل اثنين فصاعدا من المسلمين اقتتلا فأصلحوا بينهما. ألا ترى أن هذا حكم عام في الجماعة، وليس يختص به منهم اثنان مقصودان؟ ففيه إذا شيئان:

أحدهما لفظ التثنية يراد به الجماعة.

والآخر لفظ الإضافة لمعنى الجنس، وكلاهما قد جاء منه قولهم: لبيك وسعديك، فليس المراد هنا إجابتين ثنتين، ولا إسعادين اثنين. ألا ترى أن الخليل فسره فقال: معناه كلما كنت في أمر فدعوتني له؛ أجبتك إليه وساعدتك عليه»[2].

7- وقريبٌ من هذا كذلك كلمة (خصمان) من قول الله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم) فأخبر بالجمع (اختصموا) عن المثنى (خصمان)، والأمثلة كثيرة خصمان اختصموا في ربهم) فأخبر بالجمع (اختصموا) عن المثنى (خصمان)، والأمثلة كثيرة، ولكن لضيق المقام نجتزئ بهذا القدر.

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص366.

[2] ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.